# «ذوات الفروج يركبن السروج»

## قوة شهوات النساء
## أفكار

وضاح شرارة

لا تستوي النساء اللواتي يروي كتاب **الأغاني**[1] أخبارهن على سمت واحد. ولا يصح تالياً تناول هذه الأخبار، وعما تخبر عنه، على وجه واحد لا يتغير ولا يختلف. ويأتي الاختلاف أخبار النساء من طريق موضوعاتها، أي من طريق ما تخبر عنه من النساء، ومن تخبر عنهن. فهي موضوعة على رغبة النساء. والحق أن المفرد الذي تُجرى عليه الرغبة، الكلمة، لا يصح على نحو ما ان إفراد المرأة، أو حملها على صيغة المفرد، لا يصح. فالرغبة التي يتناولها الأصبهاني، صاحب الكتاب، بالخَبَر عنها إنما هي جمع، وهي رغبات متفرقة. وتَبين الرغبة من الرغبة فلا يشك من يريد جمع هذه الرغبات المتباينة في واحد، أو على معنى واحد ومثال واحد، لا يشك في تعسفه ولا في قسره المتفرق والمختلف على إلف ينفر منه الإثنان (المتفرق والمختلف) ولا يرضاه طبعهما. فالرغبات كثيرة بكثرة صواحباتها من النساء. ولا يتعسف الأصبهاني بجمعها في مثال، أو على مثال. فيتركها أخباراً متفرقة ومبثوثة في أجزاء الكتاب الكثيرة.

(١) قد لا يحتاج اختيار كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني تسويغاً طويلاً. فهو جامع أخبار من سبقوه من كبار الإخباريين مثل الكلبي وابنه، ومثل ابن الإعرابي وأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد والواقدي والجاحظ وغيرهم كثير. وانتهى إلى الأصبهاني «علم» العلماء، إلى ابتداء الثلث الثالث من القرن الرابع للهجري أي إلى حوالي سنة ٣٧٠هـ (أو سنة ٩٦٦م). وهو إلى عنايته بأخبار النساء، من مغنيات وغيرهن، جمع أخبار الأيام وحروب القبائل والعصبيات، قبيل الإسلام وبعده، وألم بأخبار البوادي والأمصار (المدن) العراقية والفارسية والشامية وبعض التركية. ويمكن هذا من حمل الأخبار بعضها على بعض، ومقارنتها، وتمييزها بعضاً من بعض، أمكنةً وأوقاتاً ومراتبَ وأقواماً. وهذه، أي الحمل والمقارنة والتمييز، عليها مدار الملاحظات التالية. وترد الحواشي إلى طبعة دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣، في خمسة وعشرين مجلداً (المجلدان الأخيران للفهرست)، الرقم الأول للمجلد والثاني للصفحة، ما لم تذكر الحاشية مصدراً اخر.

لكن الأصبهاني إذ ينقل أخباراً عن النساء ورغباتهن لا يفوته أنه إنما يأتي أمراً قد يعود عليه بالإنكار ويجلب عليه الإزراء. ولا تختص أخبار النساء بهذا، وليست وحدها مجلبة إنكار وإزراء وربما معرّة. فهذا شأن الأخبار التي توضع على ما يتبع النساء، أو يتصل بهن، من غناء وشراب وسماع (موسيقى) ومنادمة وغلمان وغيرها. وهو يكني عن هذا بالمقابلة بين «ظَرَف عبّاد أهل الحجاز» وبين تزمت «بُغضاء العراق»[٢]. فيروي عن سلمة بن دينار، أحد حملة الحديث النبوي، أنه قال لامرأة حاجة وجميلة أرفثت في الكلام (أو قالت كلاماً بذيئاً): «إني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار»؛ وينقل عن سعيد بن المسيب، وهو كذلك محدث كبير، تعقيبه على كلام سابقه: «لو كان بعض بغضاء العراق [عوض الحجازي] لقال لها: أغربي قبحك الله؟ ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز». ولا يبخل على ابن عباس، ابن عم نبي الإسلام ورأس النسب العباسي ومرجع فقه العباسيين، بقوله لعمر بن أبي ربيعة: «أنت شاعر يا ابن أخي، فقل ما شئت»[٣]. ولم يتخلف الشاعر المخزومي، القرشي والمكي، عن الأخذ بقول ابن عم الرسول، فقال ما شاء، وفعل ما شاء أو ترك الناس يحسبون أنه يفعل ما يشاء.

ويقتفي الإخباري الأصبهاني - وهو يعود بنسبه إلى عبدالله بن مسعود، أحد الصحابة وصاحب مصحف وقراءة وحديث[٤] - أثر الحجازيين وعبادهم. فلا يغفل عن جمال المرأة الحاجة، ولو تباذأت في الكلام وهي في طوافها وسعيها ونفرها بالأرض الحرام، ويرجو لها الخلاص من العذاب على رغم إتيانها ما نهى حديث «صحيح» عن إتيانه. لكنه، من وجه اخر، يحاكي المحدثين أنفسهم إذ ينقلون عن الصحابة ما ينم بخلاف بعضهم على النبي واتباع الهوى، وبالتشكك والتحفظ (وأحاديث الأسراء والمعراج، والهجرة إلى الحبشة، والإفك، وأُحُد، والحديبية، وفتح مكة... من الأمثلة على هذا). والمقارنة بين صاحب أخبار المغنين والقيان والشعراء والندماء وبين حَمَلة الآثار والأحاديث لا تقتصر على العَرَض وعلى شبهه في الحالين. فصاحب الأخبار، على مثال المحدث الثقة أو المحدث الذي «يُكتب حديثه» (البخاري)[٥]، إنما يُخبر عن الحوادث التي تقوم من الجماعات مقام الركن والتعريف[٦]، ويخبر

---

(٢) ١/٣٨٠ و٣٨٥.

(٣) ١/٨٩.

(٤) ليس النسب أمراً لا يؤبه له في المعرض الذي نحن فيه، بل هو وجه من وجوه الحجة التي يحتج بها الإخباري لصدقه وللمعنى الذي يقصد إليه ويريد الإبلاغ عنه، على ما تدل الأحكام التي ينقلها الأصبهاني في الشعراء بعضهم في بعضهم الآخر.

(٥) البخاري (ت ٢٥٦هـ) كتاب **الضعفاء الصغير**، ١٩٨٤، بيروت، عالم الكتب، ص: ٢٥؛ وذلك في إبراهيم بن إسماعيل بن مجمّع الأنصاري، فهو «كثير الوهم» ولكن «يكتب حديثه».

(٦) وهب بن منبه: كتاب **التيجان في ملوك حمير**، بلا ت. ولا دار نشر، ص: ٩ - ١٠، أول كتاب أنزل على آدم أمره الله فيه أبيني البيت العتيق «وكيف يكون نكاح ولده».

عن الأنساب التي لولاها لم يتميز واحد من آخر ولم يدل إسم على شخص بعينه[٧]، وعن الرسوم التي يَبين بها قوم من قوم في عصر واحد ووقت واحد[٨]. وهذه كلها، الحوادث والأنساب والرسوم، ليست نثرات متفرقة، ولا هي آحاد تقتصر معانيها على نفسها ولا تتعداها إلى غيرها. فعلى مثال الآثار المتخلفة عن النبي والصحابة والتابعين والخالفين تنعقد آحاد الأخبار على معانٍ ودلالات، وعلى «عبر» يستخرجها النظر، أو حتى السمع الساذج، وينصبانها (النظرُ والسمع) أقيسة يُقاس عليها وصوراً تلم شتات المتفرق والخارج بعضه عن بعض ظاهراً.

ومعنى هذا، إذا صح ما تقدم، إن تفرق الأخبار عن النساء، ورغباتهن وأحوالهن وأفعالهن وأقوالهن، يجري على معانٍ وصور ومبانٍ وليس مرسلاً ولا جزافاً. لكن «المؤلف» ـ والأصبهاني مؤلف على المعنى الأول والأصلي للكلمة أي إنه يُنزل ما يروي وينقل على «إلفة» بينه وبين جوارٍ ولا يتعدى هذا إلى «استنباط» المعاني ـ لا يبيّن عن المعاني والصور والمباني التي تنعقد عليها الأخبار، وتجلو المتفرق وتبوبه أبواباً وترتبه مراتب. فيُترك هذا العمل إلى «ناقد» الأخبار على نحو ما يترك تمييز الأحاديث إلى ناقدها وإلى المحدّث بها حديث دراية لا حديث رواية وحسب. والنقد والتمييز والدراية موضوعة على غرض معروف، ولا يتجدد في كل مرة، وهو ترتيب المنقول على مرتبتين كبيرتين: مرتبة ما لا شك فيه وفي رقيه إلى أصل ثابت، ومرتبة ما يحتمل التشكك والنظر وهو طبقات متفاوتة.

وما يرقى إلى أصل ثابت، نبوي أو بطولي (والتمييز مشتبه، على ما نرى من بعد)، ملتبس الصفة. فالآثار التي تقص حوادث ووقائع نبوية تقوم من أفهام الذين تقصّ عليهم الحوادث والوقائع هذه مقامَ السنن المتبعة، وتنزل منها (من الأفهام) منزلة معيار العمل وميزانه، فهي، على هذا، اثار وسنن معاً؛ وهي مبيّنة عما يجب عمله وعمّا يُنهى عن إتيانه. غير أن الآثار والسنن هذه مصدرها امرؤ أو إنسان (النبي أو البطل) خارج عن القياس والميزان. فهو فرد في بابه. والدليل على نبوته انفراده هذا، وهو معنى تأييده الإلهي بالمعجز[٩]. فالإعجاز ـ وهو وإن اقتصر أصلاً على التنزيل يجاوزه من طرق كثيرة منها أسباب النزول والنسخ بالسنة والتأويل بالحمل على الظرف والمعنى حتى ليصح نعت الإعجاز بـ«النبوي» على ما أجرى الشريف الرضي

---

(٧) علي بن الحسين (زين العابدين): **رسالة الحقوق**، ١٣٤٧هـ، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد، ص ١٤٣، «الولد مضاف إليه وحقه ان تعلم أنه منك». وابن حزم (ت ٤٥٦هـ): **جمهرة أنساب العرب**، ١٩٨٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ص ٥٧، في صاحب الزنج: فلولا علم النسب لجاز الكافر ما ادعى من هذا النسب الشريف» (إلى يحيى بن زيد بن علي بن الحسين).

(٨) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، طبعة دي خويه ١٩٠٦، تصوير مكتبة خياط، بيروت.

(٩) القاضي عبدالجبار (ت ٤١٥هـ): **المغني في أبواب العدل والتوحيد**، ج ١٥: **التنبؤات والمعجزات**، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٥، ص ١٦٨ وما يليها.

النعت[١٠] ـ الإعجاز هو صفة المرء كله أو معظمه. وليست صفة «الكمال» التي تضاف إلى «الإنسان» («الإنسان الكامل») إلا كناية عن النبي، خاتم الأنبياء[١١]. أي إن الآثار والسنن، ثابتة كانت أو مجروحة بعض الجرح، يصدق حملها على وجهين مختلفين: وجه الدعوة إلى التقليد والإستنان، ووجه إحالة التقليد والإستنان وذلك من طريق تعظيم صاحب السنن. والحق ان كثيراً من الأحاديث والآثار المتنازَعة إنما مدارها على أمور يومية سائرة ولا تفترض «الكمال»، إلا من وجه ثان وفرعي مترتب على أصل النبوة. وقد يكون مثال الأمور اليومية المتنازعة المسح على الخف في الوضوء. وهو يدخل في حد النبوة، والإستنان عليها، من غير أن يعجِز الفعلُ نفسهُ. فإعجازه، شأن «الكمال»، يأتيه من الكل النبوي الذي ينتسب إليه ولا يأتيه من الجزء الذي هو نفسه.

تنسج الأخبار على منوال الآثار والحديث، على نحو ما ينسج القصص البطولي العربي (سيرة عنترة، سيرة سيف بن ذي يزن، قصة الزير أبي ليلى المهلهل، تغريبة بني هلال...) على منوال السيرة النبوية المحمدية[١٢]. وتؤوِّل الأخبار، والكلام مقصور هنا على أخبار النساء وعشقهن وشهواتهن ورغباتهن وروايتها في كتاب الأصبهاني الكبير، بعضَ الاثار والأحاديث النبوية تأويلاً بطولياً، فتنزل الأفعال التي تخبر عنها منزلة عظيمة وتنأى بها من متناول الناس العاديين وحياتهم السائرة. وهذا هو الجزء «المعجز» من الأخبار، وهو موضوع إما على نساء قديمات يرقين إلى وقت يسبق وقت النبوة المحمدية أو يأتي بعده بقليل؛ أو هو موضوع على نساء منفيات من التأريخ ومن الزمن الإنسي والمدني والإجتماعي (زمن العمران) فهن أقرب إلى الكائنات المتوهمة (الغول الأنثى) وإلى الحيوان (الغَلِمات غلمة وحشية) منهن إلى الإنس وميزانهم وقياسهم. وهذا الضرب من الأخبار هو من باب الأصول والأمّات والمباني والصور، فيُحاكى ويبنى عليه ويقلَّد، ويتكاثر أخباراً من نوعه وجنسه تترسَّم صوره ومبانيه بأسماء بعضُها جديد أو «إنسي» ومعروف[١٣]. ومثل هذا كثير في الآثار والسنن والسير (النبوية)، على ما هو مشهور.

أما الجزء «الإنسي»، أو العادي، من أخبار النساء العاشقات والمشتهيات فيتناول وجوهاً سائرة ويومية من حياة النساء يدور معظمها على الأهل وعلى أحكام الأهل (الآباء والأخوة و«الحي»)

---

(١٠) الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ): **المجازات النبوية**، (القاهرة: ١٩٦٧)، مؤسسة الحلبي، ص ٣٠.

(١١) عبدالقادر الجيلاني، **الإنسان الكامل**، بيروت: ١٩٨٤، ص ٨ ـ ١٠.

(١٢) على ما افترض عبدالحميد يونس: **الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي**، القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٦.

(١٣) ترتيب الأخبار على ثلاث مراتب: واحدة إلهية، وثانية بطولية، وثالثة إنسية أو بشرية، هذا الترتيب مأخوذ من كتاب جيانباتيستا فيكو: **العلم الجديد** (١٧٢٥)، الترجمة الفرنسية عن الأصل الإيطالي، ١٩٩٣، باريس، غاليمار، ص ٢٦٧ ـ ٢٧٩ «سياسة الأبطال».

في النساء، ويدور بعضها على مشاهد من حياة المدن الإسلامية والعربية، في الصدر الأول وفي عهد «الدولتين» (الأموية والعباسية)، تتصدرها النساء ورغباتهن وشهواتهن.

وبين الجزئين هذين، البطولي والإنسي، وهما يقومان نظير زمن النبوة والصحابة وزمن المُلك، ويكنيان عنهما من بعض الوجوه، أجزاء تأخذ من كل واحد منهما بنصيب. وتتدرج هذه الأجزاء وتترجح بين الطرفين والقطبين وتمتزج على مقادير مختلفة تقربها من طرف وتبعدها من الاخر.

وفي ما يلي منتخبات من هذه الأخبار، ثم حواشٍ، معلّقة عليها تختبر ما تقدم من القول، وتسوقه (القول) في موضوع لا يسلم القائل فيه، أو في بعض أنحائه، من محنة «التخنيث» (أخذ ابن حسان بن ثابت على وصف النابغة المتجردة، امرأة النعمان، «تخنثه»، وكأن الكلام على المؤنث يؤنث قائله).

**ـ الخبر الأول:**

بنى الضيِّزَن بنُ معاوية، بن بني تَزيد بن حلُوان من قُضاعة، قصراً بحيال تكريت، بين دجلة والفرات، سمي الحَضَر. وكان الضيزن ملك تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة (العراقية)، وكان معه من بني الأجرام وسائر قبائل قضاعة ما لا يحصى، وكان ملكه بلغ الشام. وكان للضيزن هذا بنت هي النُّضيرة بنت الضيزن. فلما عركت، أي حاضت، أُخرجت إلى الرَّبْض، وهو الأرض حول المدينة من خارج، «وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن». فلما جاء سابور، ملك الفرس، وحاصر الحضر، رأته النضيرة وعشقته وعشقها. وطال حصار سابور القصرَ والمدينة فكتبت إليه بنت الضيزن: «عليك بحمامة مطوَّقة ورقاء فاكتب في رجلها بحيض جارية بكر تكون زرقاء، ثم ارسلها، فإنها تقع على حائط المدينة فتتداعى المدينة». وكان ذلك طِلَّسْمها لا يهدمها إلا هو. ففتح سابور المدينة، وأباد بني العبيد، وأفنى قضاعة، وانقرضت قبائل حلُوان ودرجوا. وأعرس سابور بالنضيرة بعين التمر. فتشكت من خشانة في فُرُشها، «وهي من حرير محشو بالقز». فأمر سابور رجلاً «فركب فرساً جموحاً، وضفر غدائر [النضيرة] بذنبه، ثم استركضه فقطَّعها قطعاً»(١٤).

**ـ الخبر الثاني:**

حدَّث قيس بن عاصم المِنْقري، من زيد مناة بن تميم ـ وهو «شاعر فارس شجاع كثير الغارات» أدرك الجاهلية والإسلام «فسادَ فيهما»، حدث الرسول عن وأد بناته فقال: «كنت أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة في البنات، فما ولدت لي بنت قط إلا وأدتها. وما رحمت منهن

(١٤) **الأغاني**: ٢/١١٦ ـ ١١٨. تجمع كتابة الخبر أجزاء من رواية الأصبهاني إما بحرفها أو ببعض التصرف، وتترك ما لا يتصل بسياقة المقالة.

مؤودة قط إلا بنية لي ولدتها أمها وأنا في سفر، فدفعتها أمها إلى أخوالها فكانت فيهم». فلما عاد من سفره طلب بنته، وأخرجها فحفر لها «حفيرة»، فجعلها فيها، وهي تقول: «يا أبتِ، أمغطِّي أنت بالتراب؟ أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني؟». و«جعلتُ أقذفُ عليها التراب حتى واريتها وانقطع صوتها». فدمعت عينا النبي (ص) ثم قال: «إن هذه لقسوة، وإن من لا يَرحم لا يُرحم». و«السبب» في وأد قيس بن عاصم بناته أن المُشَمْرج اليَشْكُري أغار على بني سعد، فسبى منهم نساءً واستاق أموالاً، وكان في النساء امرأة خالُها قيس بن عاصم. فرحل قيس إليهم يسألهم أن يهبوها له أو يفدوها. فوجد قيس المشمرجَ قد اصطفى المرأة لنفسه. فخُيِّرت المرأة في عَوْدها إلى أهلها أو البقاء فاختارت المشمرج. فانصرف قيس بن عاصم فوأد كل بنت، وجعل ذلك سُنَّة في كل بنت تولد له، واقتدت به العرب في ذلك، فكان كل سيد يولد له بنت يئدها خوفاً من الفضيحة. وقيل إن «السبب» في تحريم قيس بن عاصم الخمر على نفسه قبل الإسلام، إنه سكر من الخمر ليلة، فغمز عُكنة (ثنايا لحم البطن) ابنته، أو قال: اخته، فهربت منه. فلما صحا منها قيل له: أوَ ما علمت ما صنعتَ البارحة؟ قال: لا، فأخبروه بصنعه، فحرم الخمر على نفسه. وقيل في ذلك «سبب» اخر؛ فهو استضاف يوماً نبطياً تاجر خمر، فشربا، فربط ضيفه إلى شجرة في داره حتى أصبح؛ فلما أصبح قال، «من فعل هذا بضيفي؟ فأخبروه. فهو أول عربي حرَّمها على نفسه في الجاهلية»[١٥].

### ـ الخبر الثالث:

غزا حُجْر بن عمر، آكل المُرار، وكان «ملكاً» على ربيعة، غزا البحرين بربيعة وجموعها. فبلغ الأمر زياداً بن الهبولة القضاعي، فأقبل حتى أغار في مملكة حُجر، فأخذ مالاً كثيراً وسبى امرأة حجر هنداً، وأخذ نسوة من بكر بن وائل. فطلب إليه بعض وجوه بكر بن وائل ما أخذ، فرده، ولم تكن امرأة حجر فيمن رد. فبعث حجر انئذ رجلين يتجسسان له الأمر «ويعلمان له علمَ العسكر». فدنا أحدهما من الخيمة الكبيرة، فكان حيث يسمع الكلام. فدنا ابن الهبولة من هند، امرأة حجر، فقبلها وداعبها. فلما عاد الجمعان إلى القتال، هُزم أصحاب ابن الهبولة. فأخذ حجرٌ هنداً فربطها بين فرسين فركضا بها حتى قطّعاها قطعاً. وقيل: لما أخبر سدوس، وهو عين حجر على ابن الهبولة، حجراً بخبر القضاعي ومداعبته لهند، وإن رأسه كان في حجرها، فجعل حجر يأكل من نبت شديد المرارة (المُرار) غضباً ولا يعلم أنه يأكله حتى انتهى سدوس، فعلم حينئذ بذلك «ووجد طعمه»، فسمّي يومئذ آكل المرار[١٦].

### ـ الخبر الرابع:

كان الدلاّل، وهو مدنيّ (من المدينة المنورة) مولى بني فهم خصاه أمير المدينة، ابن حزم، لما كتب له سليمان بن عبدالملك بخصائه وسائر مخنثي المدينة ـ كان ملازماً لأم سعيد الأسلمية

---

(١٥) ٦٦/١٥ ـ ٦٨ و ٧٩ ـ ٨٠.

(١٦) ٢٧٧/١٦ ـ ٢٨٠.

ولبنتٍ ليحيى بن الحكم بن أبي العاصي (وهو أخو مروان بن الحكم، الخليفة الأموي الثالث) فكانتا تخرجان فتركبان الفرسين، فتستبقان عليهما حتى تبدو خلاخيلهما. فقال معاوية لمروان ابن الحكم: إكفني بنت أخيك! فاستزار مروان بنت أخيه هذه، وأمر ببئر فحفرت في طريقها، وغطيت بحصير. فلما مرّت عليه سقطت في البئر، «فكانت [البئر] قبرها»(١٧).

ـ الخبر الخامس:

كانت على قيس بن خالد ذي الجدَّين، وهو سيد ربيعة يوم كان عمرو بن هند ملكاً على الحيرة، يمينٌ ألا يخطب إليه أحد ابنته «علانية» إلا أصابه بشرٍّ وسمَّع به. فخطبها إليه لقيط بن زرارة، وهو فارس مُضَر يومئذ، فزوّجه إياها. فلما أرادت الرحيل قال لها: «يا بنية كوني لزوجك أَمَة يكن لكِ عبداً، وأراك إن وَلَدتِ فستلدين لنا غيظاً طويلاً؛ واعلمي أن زوجك فارس مضرَ، وانه يوشك أن يقتل أو يموت، فلا تخمشي عليه وجهاً، ولا تحلقي عليه شعراً...». فلما نزلوا بمحلة عبدالله بن دارم أقام لقيط أياماً يُطعم وينحر، ثم بنى بها. فأقامت عنده حتى قتل يوم جَبَلة. فرجعت إلى قومها، فزوجها أبوها من قومها. فكانت تذكر لقيط وتحزن عليه، وقالت لزوجها: «خرج لقيط في يوم دَجْن (غائم وممطر)، وقد تطيَّب وشرب، فطرد البقر [الوحشي] فسرع منها، ثم أتاني وبه نضْح دماء، فضمَّني ضمة وشمَّني شمَّة فليتني متّ ثمة؛ فلم أرَ منظراً كان أحسن من لقيط»(١٨).

ـ الخبر السادس:

كانت عائشة بنت طلحة وأمها أم كلثوم، بنت أبي بكر الصدّيق، لا تستر وجهها من أحد. فعاتبها زوجها مصعب بن الزبير، وهو ثاني أزواجها، في ذلك، فقالت: «إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم، فما كنت لأستره، ووالله ما فيَّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد». فأخذ بعدها مصعبٌ الشعبيَّ، أحد كبار أصحاب الحديث، إلى حجرته، حيث قبة، ثم رفع سجف القبة فإذا عائشة بنت طلحة فقال: «لم أرَ زوجاً قط كان أجمل منهما». فقال مصعب للشعبي: «أفتدري لِمَ أدخلناك»؟ قال: لا، قال: «لتحدث بما رأيت». وكان زوجها الأول و«أبو عُذرها» حفيد أبي بكر الصديق، فلما توفي، وهي عنده، «ما فتحت فاها عليه» ولم تَنُح عليه. فتزوجها بعده مُصعب بن الزبير فأمهرها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثل ذلك، وبلغ ذلك أخاه، «الخليفة» عبدالله بن الزبير، فقال: «إن مصعباً قدَّم [ذَكَره] وأخَّر خبره». وكان مصعب لا يقدر عليها ولا ينال منها، إلا بضربها. فلما قتل مصعب عن عائشة أرسل إليها عمر بن عبيدالله بن مَعْمر التَّيمي القُرشيّ جارية وقال لها (للجارية): «قولي لإبنة عمي: يقرئك السلام ابنُ عمك ويقول لك: أنا خير من هذا المبسور (السريع الأنزال) المطحول [بشر بن مروان]، وأنا ابن عمك وأحق بك، وإن تزوجتُ بك ملأت بيتك خيراً، وحِرِك

(١٧) ٤/٢٨١.

(١٨) ٢٢/١٩٥ - ١٩٨..

(ذكراً)». فتزوجته، فبنى بها بالحيرة، ومهدت له «سبعة أفرشة» عرضُها أربعة أذرع. فأصبح ليلة بنى بها عن تسع، فلقيته مولاة لها فقالت: «أبا حفص فديتك! قد كملت في كل شيء حتى في هذا!». وقالت امرأة: «وقع عمر بن عبيدالله على عائشة فجاءت العجائب»؛ فقالت لها: «أنت في نفسك وموضعك وشرفك تفعلين هذا»، فقالت: «إنّا نتشهى لهذه الفحول بكل ما حركها وكل ما قدرنا عليه». فلما مات عمر عنها «ندبته واقفة» (وكانت نُدبة المرأة زوجها قائمة مما تفعله من لا تريد أن تتزوج بعد زوجها) وقالت: إنه كان أكرمهم عليّ، وامسهم رحماً بي، وأردت ألا أتزوج بعدُ»[19].

## ـ تعليق على الأخبار:

تتشارك هذه الأخبار في رواية «أوائل» أو ما هو بالأوائل أشبه. فكل خبر يرسي مثالاً يحتذي عليه الناس الذين أتوا من بعد أو يجعلونه سُنَّة. والإستنان على مثالٍ قد يكون على وجه غير وجه التقليد والمحاكاة، فيكون على وجه الإعتبار بالمآل (المروِّع) الذي آل إليه من يقتص الخبرُ أثره ويُخبر عنه. ولا ريب في ان ما صارت إليه النُّضَيرة بنت الضَّيْزن، وقريبات بنت أخت قيس بن عاصم عوضاً عنها وكفاية، وهند امرأة حُجْر بن عمرو اكل المُرار، وبنت يحيى بن الحكم بن أبي العاصي، وكلهن انتهت بهن رغباتهن إلى القتل والتقطيع ـ تمثيل على الحدّ الذي تحد به وتعاقب النساء اللواتي ينتهكن حرام الشهوة وحرَمَ القوم والأهل. وفي مقابلة الأخبار الأربعة الأولى ونظيرها يروي الخبر الخامس والخبر السادس الجزاء الحسن الذي تجزى به رغبة انثوية حلال، على قدر ما يجوز وصف شهوة نسائية بالحلال.

والحق إن هذا التناول للأخبار الست يُغفل بعض الشيء «طبقتها» من الآثار والسنن ومنزلتها منها، أي قيامها مقام الأوائل التي تنشىء المثالات وتصورها وتحققها. لذا، فالكلام على الإعتبار ليس دقيقاً. ويُستبعد الإعتبار من القصص البطولي (والنبوي)، والسبب في استبعاد الإعتبار إجراء حوادث القصص البطولي على من يستحيل الإقتداء بهم وبهن. فهم، وهنّ، من «الملوك» وأبناء الملوك وبنات الملوك ونساء الملوك. وجلي ان «الملك»، شيخاً قبلياً كبيراً أو فارساً أو «شريفاً» من ذرية خليفة أو «ابن عم» نبي (النبي)، في هذا المعرض والسياق لا يقتصر على صاحب الأمر، أو الحاكم، أو الوالي والأمير. فالمُلك مرتبة «كينونية» على نحو «ولاية الفقيه» الخمينية[20]؛ والملوك أشبه بـ «أنصاف الالهة» الذين تروي إلياذة هوميروس إبادتهم في حرب اليونان وطروادة وترثي موتهم وانقطاع ذريتهم من الأرض. فلا محلّ للإعتبار، ولا لأحكام

---

(١٩) معظم الخبر من ١١/١٦٥ - ١٧٠ و١٧٣ - ١٧٥، وإشهاد مصعب الشعبي في ٢/٣٣٧ - ٣٣٨. أضع «ذكراً»، محل الكلمة «العامية» التي يكتبها الأصبهاني ومشيخته من غير حرج ولا اصطناع حياء، خوف الرقابة.

(٢٠) روح الله الخميني: **الحكومة الإسلامية**، (بيروت: دار الطليعة ١٩٦٩)، ص ٥٢ - ٥٣.

العمل الخُلقية والإنسية (البشرية)، حيث لا قياس بين من تروى أخبارهم وأخبارهن وبين من يسمعها أو يقرأها. فالملوك والأشراف والفرسان والخلفاء، وبالأحرى الأنبياء، ونساء هؤلاء جميعاً، انقرضوا، وانقرضت دنياهم، ولا يصح في سائر الناس ما يصح فيهم. ويصدق هذا على من ينقل عنهم الأصبهاني، وعليه، وعلى قرائه، وعلى معاصري الأخبار من غير «الأبطال»، شأن الرسول نفسه وهو يسمع قيس بن عاصم يروي وأده بنته. هذا من وجه أول. أما من وجه ثانٍ فرواية الأخبار موتَ النساء، أي قتلَهن على النحو الذي يقتلن عليه، وتكرير هذا النحو وترديده، يدل على خروج الحوادث المروية عن حدِّ الاعتبار والقصد إليه. فهي حوادث مفردة، وتقوم كل حادثة منها برأسها. فإذا اجتمعت فعلى مبنى، أي على سياق ورسم، وليس على أمر أو نهي ولا على فكرة أو دلالة.

تتصور النساء، في الأخبار الأربعة الأولى، في صورة أضداد القوم ولُحمتهم ومُسكتهم. وهذا جلي في الخبر الأول من غير تأويل. فالقضاعي العربي إنما نظيره فارسي أعجمي. ويلتقي المكان بأرض متنازعة ليست بالعربية. وإن كانت امتداد أرض العرب، وليست بالفارسية، وإن كانت بجوار عاصمة ملك الفرس، المدائن. ويعتصم الضَّيْزن بمدينته وقصره من عدوٍ يعدو عليه من خارج ويحاصره. لكن المدينة، والقصر فيها، ليس في مستطاعها الإنطواء على داخل خالص أو محض. فهي تقوم في وسط أرباضٍ تحيط بها، ويزرع أراضيها، تحت أسوار المدينة، زرّاع يدين لهم أهاليها بما يأكلون ويُطعَمون. ويكنى عن الرَّبض، أو الخارج القريب، بالبنت الحائض أو «البالغة» والداخلة في حد النساء الوالدات. فتُخرج البنت، أوَّلَ حيضها، إلى خارج المدينة وسورها دلالة على نفي ما تدخل البنت من طريقه، وهو الدم ايةُ البلوغ والرشد الجسماني، في دائرة الزواج والتبادل والتداول، دلالة على نفيه إلى خارج «البيت». فقبل الحيض كانت البنت مصونة ومكنونة، طيَّ البيت. فإذا حاضت، أو عركت، انتصبت للزواج. ولا زواج إلا بالتعرُّض لمن ليس من البيت، ولمن ليس منه «صليبة»؛ وغمز قيس بن عاصم عكنة ابنته أو أخته، وهما أقرب محارمه، قرينة على رغبة «شيخ» العشيرة في حفظ النساء كلهن في البيت ووقفهن على الشيخ. فالمرأة العربية، أو رَحِمُها، هي بؤرة الداخل وذات النفس، من وجه، وهي السُلَّم إلى أقرب الخارج وإلى الأصهار والأقرباء والحلفاء، من وجه اخر. فلا قوام للمدينة إلا بغيرها (الريفي) وخلافها القريب، ولا قوام للأهل والعشيرة إلا بالتزاوج والصهر من أقرب الناس إليهما وأقلهم «اختلافاً» عنهما. فابن العم العربي هو من الأهل والبيت بمنزلة الرَّبض أو الأرباض من المدينة: آخر دائرة الداخل وأول دائرة الخارج. وهذا هو السبب في تحفظ قيس بن خالد (الخبر الخامس) من خطبة بنته علانية ومن ولادتها ولداً لفارس مضر يكون «غيظاً طويلاً» أو عدواً مرّاً لأهلها من ربيعة وبين القومين، الكفوئين شرفاً، حرب الأخوة العرب المحتملة دوماً؛ وهو السبب في حمل عائشة بنت طلحة (الخبر السادس) على نُدبتها أخر أزواجها، قائمةً، على «مس» رحميهما الواحد بالآخر واعتذارها عن الزواج بذلك.

فلا تكاد تخرج البنت، بواسطة الحيض ثم الزواج فالولادة، عن أهلها وبيتها، ولو هي خرجت إلى أقرب الأقرباء، حتى تتهدد مُسكتهم وقيامهم (المفترض والكاذب) بنفسهم - وهو مفترض وكاذب لأن البيت لم ينشأ إلا عن اتخاذ رجل امرأة وزوجاً واتخاذ امرأة زوجاً، أي عن ائتلاف «رحمين» على ما تقول عائشة، وتقول العرب من قبل ومن بعد، خلافاً لكل مشهود ومعروف مُختبَر. فوراء الربض سابور «ذو الأكتاف»، والمشمرج اليشكُري، وزياد بن الهبولة القضاعي، ولقيط بن زُرارة الدارمي... والفرق بين العدو الفارس، الغازي والمحاصِر، وبين الحليف الدارمي والمضري الذي يخطب البنت «سراً» على ما يشتهي الأب وتزف إليه على ما تشتهي هي وتريد (أنظر اداب الزفاف تالياً) الفرق من هذا الوجه، فرق درجة وليس فرق كيفٍ وجنس. وكل ما يبتدىء فرقاً إنما ينذر بصدع وبتداعٍ يأتي على البيت من أركانه.

فما تخرج به البنت العربية عن بيتها، وهو حيضها الذي تتصدى به للنكاح ويتعرض به أهلها للمصاهرة والحلف ويتوسلون[٢١]، هذا الحيض دم مطّرح ونافل ونجس. فخير للأهل، وللمدينة والقصر ان تحيض البنت خارج «البيت» فتدفن نجاسة الدم المطرح في «حفيرة»، على نحو ما صنع قيس بن عاصم (الخبر الثاني) وصنع قبله وبعده أقوام لا يحصون في أربع أنحاء الأرض[٢٢]. فلا يجوز للبنت أن تحيض في بيتها مثل ما لا يجوز أن تُنكح في أهلها. لكن البنت الحائض، أو «المتفتية» («المراهقة») على ما جاء في وصف فتيات مكة المفتتنات بالدارمي الشاعر[٢٣]، لا تكاد تحيض حتى تشخص كلها إلى خارج الأهل والمدينة، وتتبع شهوتها من غير قيد بقوم أو أهل. فكأن ذاتَ الداخل والنفس والقوم تتوجه على الخارج من غير بقية تستبقيها للداخل، فلا يأمن الداخلُ هذا، وهو النفس والقوم جميعاً، الإنهيار والنزيف. وحركة الشهوة النسائية إنما صفتها هذا التوجه على الخارج واستفراغ النفس واستنفادها في هذا التوجه. فيتضافر على هذا حالُ المرأة ووجوه هذه الحال كلها: الطبيعة العضوية، والإجتماعية، والسياسية. فالحيض أمارة على خروج جسمها من انكفائه وعلى قبوله «التعلق» بغيره وائتلافه به؛ وهو الإيذان بخروج البنت من بيتها إلى بيت رجلٍ من غير محارمها؛ والحيض هو ابتداء

---

(٢١) لم يغب عن أحد من دارسي القرابة العربية المعاصرين، ولا عن ذي الجَدَّين من قبل، ان الزواج العربي «سياسي» يقدم حلف الأسر والعائلات والأهل على غيره من العلل، جوليان بيت - ريفرز: **إناسة الشرف**، ١٩٨٣، النص الفرنسي عن الأصل الإنكليزي، باريس، دار سيكومور. وهو السبب في إرساء إرهاصات «الفردية» العربية على تزويج البنت ثرياً لا تحب وتقديمه على حبيب فقير، على مثال **الأجنحة المتكسرة**، لجبران.

(٢٢) دون تالاييسخا: **شمس الهوبي**، سيرة شيخ من قوم الهوبي، ١٩٥٧، جمع السيرة ليو سيمونز، الترجمة الفرنسية عن الإنكليزية، دار بلون، الفصل التاسع؛ وماري دوغلاس: **النجاسة** (العنوان الفرنسي لكتاب عنوانه بالإنكليزية: «الطهر والنذير»، ١٩٦٧) ١٩٨٤، باريس، دار ف. ماسبيرو، ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٢٣) ٤٦/٣.

المفاوضة على التزويج بين أجزاء القبيلة أو بين القبائل الساعية في الحلف أو في السلم.

وتنم الأخبار الستة، وغيرها كثير، بأن القيد على شهوة النساء ليس من النساء أنفسهن، ومن المحال أن يكون هذا القيد على رغباتهن منهنّ هن. فعل قدر ما النساء داخل ورحم وليل (مروان بن أبي حفصة في ركب إلى هارون الرشيد: «لما صرنا في أرض موحشة قفر وجنّ علينا الليل لم نشعر إلا بامرأة تسوق بنا إبلنا وتحدو في اثارنا، فإذا هي الغول، فلما لاح الفجر عدلت عنا...»)[٢٤] هنَّ اشتهاء وشخوص وخروج واشتطاط. ولا يصح زعم صاحبي **النقض على أوديب**، جيل دولوز وفيليكس غاتاري، إن الرغبة «ظاعنة» أو «بادية» (من الظعن أو الرحلة ومن البداوة والبدو) مثل صحته في شهوة النساء العربيات، على حسب صفتها في الأخبار وافتراضها في العلاقات الإجتماعية والعمران. فلا تكاد تخرج المرأة، وهي بنت بعد، من نفسها وجسمها وأهلها حتى تجمح إلى أقاصي هذا الخارج، فتَعْلق الأعجمي العادي وتعشقه عشقها العربي الغازي والسابي. وهي لا تعشق معتدلةً ومُقْسِطة وزامّةً نفسها، بل تشتط في العشق فتنحاز إلى رغبة عدو بيتها وأهلها في قتل أهلها، وأولهم والدها وأبوها أو زوجها (الأخبار الثلاثة الأولى). والإنحياز إلى رغبة العدو في قتل الأهل واجتثاث «أصولهم»، وهم الرجال المحاربون وعمدةُ القوم والقبيل وهم الاباءُ الوالدون وهم الأسماءُ التي لا يستقيم نسب إلا بها، هذا الإنحياز لا ينطوي على انهيار «النفس» ودمارها وبوارها وحسب، بل يؤدي كذلك إلى ارتفاع الفرق بين «النفس» (ما ينسب من طريقه «شيء» ما إلى نفسه وتثبت به هويته) وبين الغير. فلا يبقى ما يَفْرق به امرؤ من غيره، أو ما يبين به شيء من شيء، ومعنى من معنى؛ وهي الحال التي أرخت بها الرواياتُ الخلاصية والمهدوية لعشيةِ ظهور المهدي المنتظر من ارتفاع الحدود الشرعية، وامتلاء الدنيا ظلماً، ودروس حروف القران، واشتباه الرجال والنساء[٢٥] (الخبر الرابع والخبر السادس). فالشهوة التي لا تنتهي إلى غاية أو حدّ، وهذا شأن شهوات النساء (العربيات) في مرآة الأخبار البطولية، تعصف بالفروق التي يقيمها العمران، والخلقُ قبلَه إذ جرى على قسمة البشر (والحيوان أو الحياة نفسها) ذكراً وأنثى وقبائل وشعوباً وناط تعارفها بقسمتها هذه[٢٦].

وتمثّل الأخبار كلها على هذا تمثيلاً جلياً. فحيض الجارية البكر، والجمع بين البكارة وبين الحيض ما كان ليكون إلا لوقت قليل على ما تدل عليه حال عائشة بنت أبي بكر وغيرها من بنات الخلفاء وأزواجهم[٢٧]، إذا كتب به ووقع من رجل الحمامة على سور المدينة «تداعى»

---

(٢٤) ١٠/٩٩.

(٢٥) ابن بابويه (ت ٣٨١هـ): **إكمال الدين وإتمام النعمة في إثبات الرجعة**، ١٩٧٠، منشورات المطبعة الحيدرية بالنجف، ص ٣٢٢، عن أبي جعفر محمد بن علي (الباقر) في ميعاد خروج القائم: «إذا شبه الرجل بالنساء، والنساء بالرجال (...) وركب ذات الفروج بالسروج...».

(٢٦) سورة الحجرات: ١٣.

(٢٧) كتب السير عامةً.

السور وتداعت المدينة وهُدمت، وأبيد بنو العبيد وفَنيت قضاعة وانقرضت حلوان... وهذه كلها، وأولها تداعي سورِ المدينة وأمارةِ الفرق بينها وبين خارجها القريب أي ربضها، آيات ارتفاع الفروق واندثارها ودرسها. وخبر النُّضيرة وسابور، وهو أقدم هذه الأخبار زمناً وأبعدها مكاناً ونسباً وأوضحها وأبلغها معنًى، يبالغ في تصوير أثر شهوة النساء في تقويض الحدود (المدنية/ الربض، العرب/ الفرس، المُلك والقبائل / العدو والفناء، الوالد/ الغاصب، البنت/ العاشقة...). فالسُلّم إلى الصهر والحلف والآصرة، وهو البنت غداة بلوغها أي دمُها وحيضها، ينقلب على كل ارتباط وعلى كل حدّ، ويطيح الروابط والحدود جميعاً، ولا يخلّف إلا يباباً وقَفْراً، ويمهّد العمران بالصحراء والتراب. وشكوى النضيرة من خشونة فراشها، وهو حرير محشو بالحرير، آية على ضعف والتمييز على اختلاط الحس. فالمرأة التي ركبتها شهوتُها، وحملتها على جعل كل أواصرها خلف ظهرها، هذه المرأة إذا كان هذا شأنها لم تنتهِ إلى غاية أو إلى حدّ في الطلب والإشتهاء، وأعجزت الرجل، ولو كان سابور ذا الأكتاف وملك الفرس عن تلبية طلابها واحتياجها.

و«مجون» أم سعيد الأسلمية وبنت يحيى بن الحكم من هذا الضرب من الإشتهاء أو هو قريب منه (والجنسانية الأولى، على تصنيف فرويد في **المحاضرات الخمس في الجنسانية**، «ماجنة» أي هي تخلط المواضع وتكافىء الموضع بالموضع ولا تقدم واحداً على آخر). فهما يركبان الخيل، عوض الهودج والقبة المضروبة على ظهر النوق. ويُجريان الخيل في ميدان سباق، شأن الفرسان؛ والنساء لا يركبن الظهور إلا على ارتحال من موضع إلى موضع يقوم عليهن ويحرسهن خدم أو أهل ذكور، فلا يتخذن الظهور لعباً من غير غرض ولا يركبن شارة القوة والشرف والفتح، وهذه كلها خاص الرجال، فإذا فعلن ما فعلته الأسلمية والمروانية محون ما يفرق به الرجال النساء، و«ركبت ذوات الفروج السروج»[٢٨]، وهذا من علامات مجيء المهدي في بعض أحاديث أئمة الشيعة الإمامية. فإذا قامت النساء، على صهوات الخيل الجامحة، بما يقوم به الرجال «انقلبت علامات الزمان» (عبدالرحمن الجبرتي) وماد العالم على أركانه وتغيرت آياته. وابتداءُ هذا هو التوسلُ بالخيل. وموضع الخيل من التخييل الملَكي العربي عالٍ، إلى غير الغاية المعروفة والسوية. ثم إظهار الخلاخيل التي تستر، على حسب عزة الميلاء من مغنيات مكة وخاطباتها[٢٩]، من بدن المرأة اخص خاصها، فلا يراها إلا الزوج، وقد لا يراها من الأزواج إلا المحظي الموافق من شهوة زوجه موقعاً. فإذا ارتفع الفرق بين المرأة الحليلة وبين الفارس الفاتح، وبين الزوج المحظي وبين عابر السبيل، وذلك تحت نظر الدلاّل المخنث الذي يخلط في جسمه ونفسه الذكر بالأنثى، آذن العالم بأن «يسوخ». ولعل الأثر الإمامي، المتقدم، هو من أخبار الأهل

(٢٨) ابن بابويه: المصدر نفسه.

(٢٩) ١٦٥/١١.

المتنَاقَلة فيهم والتي يرويها بعض الأهل (آل علي بن أبي طالب) في ذم بني أعمامهم (آل أبي سفيان بن حرب). فهي من «ذكرياتهم العائلية» التي يغيّرها انقضاء الزمن ويعظّمها، فإذا جمعت إلى «المقاتل» (على معنى **مقاتل الطالبيين** للأصبهاني نفسه)، وكان القتلى من الأهل الأقربين، انقلبت النساء اللواتي يركبن الخيل وتبين خلاخيلهن إلى آية من آيات آخر الزمان.

وخبر عائشة كذلك خبر إسلامي و«عائلي»، على المعنى المتقدم. فبنت طلحة، وأبوها أحد كبار الصحابة، «تؤوّل» الأمرَ بستر الوجه وترده إلى «علة» مفهومة وليس إلى توقيف وتعبُّد (الغزالي) وعلة شرعية (ابن حزم)، و«تناقش» العلة المفترضة وتبطلها. فالإستتار، على زعمها، إنما السبب فيه «الوصمة» في الوجه وضعف الفضل، أما وقد خلت (بمشيئة من؟) من كل وصمة تصم جمالها، فالستر على الوجه (الحجاب أو النقاب) نافل، بل يحلّ أن تبرز هي وزوجها في قبتها لأعين «المحدّثين» عن الصحابة عن النبي... فتنسب عائشة، وعائشة بنت أبي بكر وزوج الرسول الأثيرة والمحدِّثة خالتها، إلى نفسها القوة على الإحتجاج على أوامر الشرع ونواهيه، بإسم حُسْنها «الكامل» و«فضلها» على النساء. فهي، على وجه يباين الوجه النبوي، «مصطفاة». وهذا ضرب من التعليق على السيرة وعلى السنن.

يترتب التداعي، وحلقاتُه التي يستجر بعضها بعضاً إلى الموت تقطيعاً، يترتب على انتهاك أولِ مركوز الشريطة في طبع المرأة (حيضها الذي يعرّضها للنكاح والحمل) وفي سَمْتها الأهلي والإجتماعي (تحريم زنا المحارم) جميعاً. فإذا أخرجت فائض دمها من جسمها صلحت لترك أهلها وبيتها، وللإقامة في دار غير دارها، وأهل غير أهلها، وآذنت باستقبال (ذكرٍ) في حِرها «يملأه» (عمر بن عبيدالله التيمي) و«تتشهى له» (عائشة بنت طلحة) على رغم «شرفها» و«موضعها» (الخبر السادس) ـ وعائشة هذه لم تلد للتيمي ولداً اما من ولدت له فهو ابنُ ابنِ أبي بكر الذي «ما فتحت فاها عليه» لما توفي وقضى؛ فهي آية على فصل الإشتهاء من الولادة والذرية، وقرينة على استرسال الإشتهاء المتروك على غاربه، وعلى استدعاء رغبة المرأة رغبةَ الرجل واستيلاد الشهوةِ الشهوةَ لا إلى حدّ أو غاية إلا حدّ الموت والرغبة فيه («فليتني متّ ثمة» الخبر الخامس).

فأول ما تنتهكه شهوة النساء الجامحة هو ترتيب البشر والأمكنة على مراتب من القرابة والبعد، أو العداوة. فالناس ينزلون «الأرض» جماعات وعصائب، أي ينزلونها أهلاً وعشائر. وعلى نحو ما يتقطعون أهاليَ وبطوناً وأفخاذاً، أو أجساماً وأجزاءً أهلية وينتسبون إلى أرحام (نسائية) وإلى أسماء (ذكرية وإن عادت إلى أوائل نسائية في بعض الأحيان) فهم يحلون ديراتٍ و«أموائَ» (جمع «ماء» على معنى النبع والبئر والمورد) ومضارب ومراعي. وشريطة مُسْكة الأهل أو القوم، العرب، حفظهم أصلابهم في ذراريهم، وماءهم (ماء الرجل) في أرحامهم ونسائهم. فالتكاثر على هذه الشريطة، أي على شريطة أقلّ الفرق في اختيار القرين وجعله في بني

العمومة، ينشىء الممالك القوية ويرسي أركانها على دعائم لا ينال منها إلا طِلَّسْم يدين بفعله للسحر، أي لأصول الإجتماع الغُفْل، ولا يدين به للصناعة والحيلة والتخلص. وهذا يفترض بدوره أن تقع الرغبة، رغبة النساء، موقعها ولا تحيد عن هذا الموقع، فتبقى في «الأهل»؛ وهؤلاء يضيقون أو يتّسعون على حسب الأحوال والإحتياجات والمصادفات (أو المجاعات والحروب والهجرات). وتنعقد الرغبة على مواقع تعيّنها سياسات الأهل والرئاسات. وترمي هذه السياسات إلى حفظ قوة العشير في العشير. ويتأتى ذلك من مزاج دقيق بين القرابة والحلف، أي بين الإنكفاء على داخل ورَحِم وبين التوسع في الحمل على بنوة العمومة. والنساء هن مناط هذا المزاج، وعليهن مبناه. فإذا خرجن على مبنى المزاج وعلى ميزانه انهار المزاج وخابت السياسات التي تولته. فكل النساء اللواتي تركن أنفسهن لشهواتهن هن من بنات البيوتات والملوك. ولجم شهوة النساء ولزوم النساء من قريبات «الملوك» حدّ الأمر والسياسة (يقول معاوية لمروان في بنت أخيه، راكبة الفرس والمشهدة الناس على خلخالها أي على ما لا يراه منها إلا زوجها: اكفني بنت أخيك! الخبر الرابع، وهو يعني: ألزمها حدود ما يُرى ولا يرى)، هما، لجم شهوتهن ولزومهن الحد، شيء واحد. ويكافىء موت معظمهن تقطيعاً وموت الأخريات خنقاً ووأداً، وبنت يحيى بن الحكم التي دفنت في البئر ماتت مؤودة في الإسلام مثل بنات قيس بن عاصم، يكافىء هذا الموت على الوجهين خروجهن عن حدود الأهل والبيت وخلطَهن الأرحام أو توسلهن بتحرهن وفروجهن إلى مجرد الإشتهاء ومحضه. فالتقطيع يحاكي تداعي وحدةَ البدن السياسي وتناثره من غير جامع على قرابة وعداوة، أو ترتيب على مراتب المكان والإرتحال؛ وآلة التقطيع هي الفرس الجامحة، والفرس الجامحة آلة القوة والشرف والفتح أي آلة الفحولة والنسب[٣٠].

أما الوأد فيكبت النفس، ويقطع أوصال الكيان المؤتلف من جسم حيٍّ يتنفس ومن فضاء وأرض وهواء، فيحاكي الإنكفاء التام. ويكني التقطيع (بالفرس) والوأد (في حفرة) عن حديّ الإجتماع (الأهلي) المميتَيْن: فالإرتماء على خارج، من غير علامات قربٍ وبعد، مميتٌ شأن الإنكفاء إلى داخل منقطع من كل غريب. وحدّا الإجتماع الأهلي هما حدّا النساء في مرآة القَصَص البطولي والسنن. وهما حدّاهن في مرآة القرابة العربية الصريحة والخرافية: فلا مناص من تزويج البنت إذا بلغت ولو في الأهل الأقرب والمبتدئين أقلّ الفرق وأضعفَه، أي في بني العمومة أو بني الخؤولة، ولكن النزول عن البنت ولو على هذه الشريطة قوةٌ للقريب على النفس وإضعاف للنفس بإزاء القريب (ذو الجدّين).

ما ترويه الأخبار البطولية على نحو ملحمي وخرافي، ولو تناول بعضُها بشراً إنسيين أو

(٣٠) ابن الكلبي: **كتاب الخيل**، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٦)، القاهرة، وعنوانه كاملاً: «أنسابها في الجاهلية والإسلام».

«بورجوازيين» ـ من سكان المدن، على معنى البورجوازي الأول، وكذلك على معنى الإنسي، الذي تأنّس الدنيا، العادي والنازع وحده من أصناف البشر والمجتمعات إلى ملابسة الناس حيثما كانوا فيكون البورجوازي والإنسي واحداً ـ ما ترويه هذه الأخبار على نحو الرُّقْية، وبعضه تولى نسخَه الدِّين الجديد، تروي أخبارٌ أخرى ما يشبهه ويقرب منه على وجه إنسي ونثري عادي. وتتدرج هذه الروايات كذلك، شأن التي تقدمت ومرت، من مرتبة «عالية» إلى مرتبة أدنى: من مثال النُّضَيْرة بنت الضَّيْزن إلى مثال عائشة بنت طلحة.

**ـ الخبر السابع:**

وهب والي المروانيين على العراق، عمر بن هبيرة، الحكم بن عبدل، أحد أعيان أهل الشام، جارية من جواريه، بعد ان اشتكى له الضَّبَعَة (الشهوة). فواثب الحكم الجارية ليلة صارت إليه، فنكحها تسعاً أو عشراً طلقاً (شوطاً واحداً). فلمّا أصبحت قالت له: «جعلت فداك! من أي الناس أنت؟» قال: «امرؤ من أهل الشام»، فقالت: «بهذا العمل نصرتم»[٣١].

**ـ الخبر الثامن:**

أغزى الحجاج (بن يوسف الثقفي) أعشى همدان، الشاعرَ الكوفي وأحدَ الفقهاء القراء وصهرَ الشعبي الفقيه المحدث، بلد الديلم في أعالي فارس ونواحي دَسْتجه، فأُسر في أحد المغازي. ثم إن بنتاً للعلج، الديملي الذي أسره، هويته، وصارت إليه ليلاً فمكنته من نفسها. فأصبح وقد واقعها ثماني مرات. فقالت له الديلمية: «يا معشر المسلمين، أهكذا تفعلون بنسائكم؟». فقال لها: «هكذا نفعل كلنا»، فقالت له: «بهذا العمل نصرتم». فحلت قيوده وهربت معه[٣٢].

**ـ الخبر التاسع:**

أودعت نسوةٌ من جواري بني أمية عمرَ بن أبي ربيعة، الشاعر، وديعةٍ تذكرة («تذكاراً») دفعن بها إلى عمر يتذكرهن بها. فإذا هي صندوق لطيف مقفل مختوم و«مملوء بالمضارب» (= الة الضرب وهي السّفاد) وهي الكيرنجات (كير: آلة الذكر بالفارسية، ورنج ومعناه الشكل واللون)؛ وعلى كل واحد منها اسم رجل من مجان مكة، وفيها اثنان «كبيران عظيمان»، على أحدهما كتب «الحارث بن خالد» (بن الوليد)، وهو يومئذٍ أمير مكة، وعلى الاخر كتب «عمر بن أبي ربيعة»[٣٣].

---

(٣١) ٣٧٢/٢.
(٣٢) ٣٥/٦.
(٣٣) ١٦٨/١.

ـ **الخبر العاشر:**

قالت هند بنت الحارث المرِّية لعمر بن أبي ربيعة: «لو رأيتني منذ أيام، وأصبحتُ عند أهلي، فأدخلت رأسي في جيبي، فنظرت إلى حِري فإذا هو ملء الكف ومنية المتمني، فناديت: «يا عمراه! يا عمراه!» فقال عمر: «فصحتُ، يا لَبَّيْكاه! يا لَبَّيْكاه!»[٣٤].

ـ **الخبر الحادي عشر:**

خرجت على إبن ميّادة، أحد شعراء الدولتين وإبن أَمَة بربرية أو صَقْلَبية، في ديار المُرِّيّين جارية عليها شَفّ (الرقيق من الثياب)، فإذا شفها ليس يواري منها شيئاً، وقد نبا على رَكَبِها (ظاهر الفرج أو الفرج نفسه) ما وقع عليه من الثوب، فكأنه قَعْب (قدح ضخم غليظ) مُكفأ (مقلوب). ثم قالت: يا بن ميادة الخبيث، أأنت القائل: (وتبدي الحُمَيْسيّات في كل زينة/ فروجاً كآثار الصغار من البَهْم)؟[٣٥].

ـ **الخبر الثاني عشر:**

كتب عمر بن أبي ربيعة كتاباً إلى كَلْثَم بنت سعد المخزومية بعثه إليها مع أَمَةٍ كاتَبَها (عاهدها) على عتقها إذا هي أوصلت إلى كلثم الرقعة وقرأتها كلثم. وفي الكتاب:

قتلتنا يا حبذا أنتم ... من غير ما جُرم ولا مَأْثَمِ
والله قد أنزل في وحيه ... مبيِّناً في اية المحكم
من يقتل النفس كذا ظالماً ... ولم يُقِدْها، نفسَهُ يَظْلُمِ
أنت ثأري فتلافيْ دمي ... ثم اجعليه نعمةً تُنْعَمي

فردت كلثم: «إنه خَدّاع مَلِق وليس لما شكاه أصل»، فقالت الأمة: «فما عليك من امتحانه»، فقبلت كلثم بالإذن له وقالت: «ما زال حتى ظفر ببغيته». فجلست له من وراء ستر و«تركته حتى سكن»، وقرأت من شعره وعاتبته. فمكث عندها شهراً لا يدري أهله أين هو، ولم تتركه يخرج إلا بعد أن تزوجها. فولدت منه ابنين أحدهما جُوانٌ، وماتت عنده[٣٦].

ـ **الخبر الثالث عشر:**

قال عمر بن أبي ربيعة شعراً في سُبَيْعة بنت عبدالرحمن بن أبي بكرة، أحد كبار الصحابة، فغنت جميلةُ المغنية بشعر عمر في سبيعة. وسمعت سبيعة غناء جميلة فقالت لها: «جعلني الله

---

(٣٤) ١٧٣/١، و ٣٦/٢٢.
(٣٥) ٢٨٠/٢.
(٣٦) ١٩٥/١ - ١٩٧.

فداك! أقلقني وأسهرني صوتك بشعر عمر فيّ فأسمعيني إياه»، فقالت جميلة: «وعزازةً لوجهك الجميل!». فغنتها الصوت، فأغمي عليها ساعةً حتى رُشّ على وجهها الماء وثاب إليها عقلها[٣٧].

**ـ الخبر الرابع عشر:**

كان أبو ذؤيب الهُذَلي، من هُذَيل شاعر جاهلي وإسلامي، يهوى امرأة يقال لها أم عمرو. وكان يرسل إليها خالد ابن زهير، وهو ابن أخت أبي ذؤيب أو ابن أخيه. فخانه فيها. فلمّا علم أبو ذؤيب بما فعل خالد صرمها. فأرسلت تترضاه، فلم يفعل، وقال فيها:

تـريـديـن كـيـمـا تجـمـعـيني وخـالـداً

وهل يُجمع السيفان ويحك في غمد[٣٨]

**ـ الخبر الخامس عشر:**

خبَّر عبَّاد البشري قال: مررت بمنزل من منازل طريق مكة يقال له النبَّاج، فإذا «كتاب» (كتابة) على حائط في المنزل، فقرأته فإذا هو: «(الجماع) أربعة: فالأول شهوة، والثاني لذة، والثالث شفاء، والرابع دواء، وحِرٌ إلى (ذكرين) أحوج من (ذكر) إلى حِرَيْن؛ وكتبت دنانير مولاة البرامكة بخطها»[٣٩].

**ـ الخبر السادس عشر:**

حدث رجل معاوية بحديث ماويَّة بنت عَفْزَر فقال: كانت ملكة، وكانت تتزوج من أرادت». وقال: «بعثت غلماناً لها وأمرتهم أن يأتوها بأوسم من يجدونه بالحيرة، فجأوها حاتم (طيىء)، فهرب». وكان النساء، أو بعضهن، يطلقن الرجال في الجاهلية[٤٠].

**ـ الخبر السابع عشر:**

سمعت عبيدة الطنبورية غناء الزبيدي الطنبوري «فوقع في قلبها فاشتهته». وحذقت الغناء على الطنبور، فلم يزل أمرها يزيد حتى تقدمت، وكبر حظها و«اشتهاها الناس». وكانت عبيدة شديدة الغُلمة لا تحرم أحداً، «ولا تكرهه من حد الكهول إلى الطفل». وتعلّقت شاباً أفطس قبيحاً، شديد الأُدْمة (السمرة)، فكُلّمت في ذلك، فقالت: «قد تمتعت بكل جنس من الرجال إلا السودان، وهذا بين الأسود والأبيض، وبيته فارغ لما أريد، وهو صَفَعاني [الرجل الذي يصفع] إذا أردت، ووكيلي إذا أردت». وكان لها غلام يلقب «ظئر عبيدة». فكانت إذا خلت في البيت، وشبقت،

---

(٣٧) ٢٢٧/٨ - ٢٢٨.
(٣٨) ٢٥٨/٦.
(٣٩) ١٦/١٨ - ١٧.
(٤٠) ٢٩٢/١٧ و ٢٩٧.

اعتمدت عليه، وقالت: «هو بمنزلة بغل الطحان، يصلح للحمل والطحن والركوب»[٤١].

**ـ الخبر الثامن عشر:**

زعم الزبير بن بكّار، وهو إخباري معروف، أن أم منظور بن زبّان الفِزاري، وكان منظور سيد قومه فزارة بن ذبيان (غطفان)، حملت بمنظور أربع سنين. ولما توفي أبو منظور، زَبّان، تزوج منظور امرأة أبيه، مُلَيْكة بنت سِنان بن أبي حارث المُرّي، ولم تزل معه إلى خلافة عمر بن الخطاب. وكان يشرب الخمر. فسأله عمر، فقال: «ما علمتُ أنها حرام» وحلف. فقال له عمر في زواجه: «أوَ ما علمت أن هذا نكاح المَقْت؟»، وفرق بينهما، فقال:

لعمرُ أبي دينٌ يفرِّق بيننا وبينكِ قسراً إنه لعظيمُ

ورآها يوماً تمشي في الطريق، وجازَت وجاز بعدها زوجُها، فقال له منظور: «كيف رأيت أثر (ذكري) في حِرِ مُلَيْكة؟»[٤٢].

**ـ الخبر التاسع عشر:**

في سنة ثلاث وسبعين (للهجرة) قتل ابن الزبير، وهدأت الفتنة واجتمع الناس على عبدالملك بن مروان. وتكافّت قيس وتَغْلِب عن المغازي بالشام والجزيرة، وكُلم عبدالملك في ذلك «ولم يحكم الصلح». فافتعل أحد القيسيين، الجحّاف بن حكيم بن عاصم بن قيس، عهداً من عبدالملك على صدقات تغلب وبكر، وصحبه من قومه ألفا فارس، فصبحوا البِشْرَ، وهو وادٍ لبني تغلب بالخابور، فأغاروا عليهم. ونادى رجل من بني قُشير، من المغيرين، في أخلاط تغلب: «أنا جارٍ (مجيرٌ وحامٍ) لكل حامل أتتني فهي آمنة». فأتته الحبالى، فكانت المرأة تشد على بطنها الجفنة (الآنية) من تحت ثوبها تشبيهاً بالحبلى. فلما اجتمعن للقشيري بقر هو والجحّاف بطونهن، ومن كانت غير حامل قتلوها. وهرب الجحّاف بعد فعله ولحق بالروم. ثم تألّه بالجحّاف، بعد أن أمّنه عبدالملك، واستأذن في الحج، فخرج وقد لبس الصوف وأحرم، وتعلّق بأستار الكعبة وهو يقول: «اللهم أغفر لي، وما أراك تفعل»[٤٣].

**ـ تعليق على الأخبار (٧ ـ ١٩)**

ما كانت عائشة بنت طلحة لتكلم عمر بن عبيدالله بكلام جاريتها: «فديتك، أبا حفص!». فهذا كلام الإماء والجواري اللواتي يقلن ما لا تقوله سيداتهن. ويُجري الأصبهاني، أو من ينقل

---

(٤١) ٢١١/٢٢ ـ ٢١٢.

(٤٢) ١٩٠/١٢ ـ ١٩١.

(٤٣) تأليف من ١٩٧/١٢ ـ ٢٠١ ومن ٢٠٢/٢٣.

عنهم، على لسان الجواري المملوكات، عبارات الإكبار والإعظام (الخبر السابع)؛ ويجري على لسان بنات العلوج من أكابر الفرس خطاب المقارنة بين القومين (الخبر الثامن). وحَبْسُ الأصبهاني ومشيخته كلمات التعظيم عن لسان السيدات، وتركُها للإماء، من الدلائل إما على صنعة استوفت شروطها فقاربت الحقيقة أو على .نقل بالغ الإتقان والأمانة ولا تفوته الفروق الدقيقة (وهذا تزكية للنقل عن الأصبهاني ولوضع الفحص على كتابه وأخباره).

ومهما كان من أمر السيدات والجواري (أو الخادمات...)، فمديح الرجولة والفحولة موكول إلى النساء وإلى متعتهن وشهوتهن. فالرجل إذ يواقع ثماني مرات أو تسعاً أو عشراً، طلقاً أو على تقطع، إنما يقع على مستزيد (مستزيدة، معنى وليس لغة) ولا يقع على بَرَم أو كَلل أو عجز عن اللحاق به. فإذا وقف وانتهى عن المواقعة فذلك من شأنه وليس من شأن المرأة التي يواقع. أما هي فتجزي المرات والكثرة إعجاباً وإكباراً، وربما استزادة لولا خَفَر بهن أصيل أو عِلم قديم بما الرجل قادر عليه أو مقصِّر دونه... فالمرأة هي القياس، وهي الميزان، والرجل إنما يصول ويجول في ميدانها. وهذا ما يحمل صولته وجولته على الإلتباس والإشتباه. فالحكم بن عبدل، الشامي، يُشهد «عراقية» على ما به نُصر أهل الشام، ويُشهد أعشى همدان ديلميةً على ما به نصر المسلمون ومعشرهم. فالمنتصِرُ لا يثبت نصره، في عين نفسه، إلا إذا ثبت في عيني المهزومين؛ وهذا يرمي بالشبهة النصر والهزيمة جميعاً. وتأتي الشبهة من طريق النساء وجِهتهن. فهن من يوطأن و«يركبن»، على حسب قول عبيدة الطنبورية التي تقلب الركوب وتجعله على الرجل (الخبر السابع عشر)، لكن النساء هن الموكول بهن تقويم صنيع الرجل. وشهادتهن على إنجازه هي المقبولة من غير جرح، ويعظم الرجل قياساً على شوطه في مضمارهن وكأنهن لا قياس لهن، على ما كَنَت الأخبار البطولية فَجَرْت انتهاء شهواتهن إلى لا غاية بالقتل تقطيعاً وبالوأد.

أما من وجه آخر، فالرجل هو مصدر الفَرْقِ و«العدد»، ومن جهته وطريقه يأتي المنفصل، على خلاف المتصل وغير المُعْلَم بعلامات وأمارات. فعدد مرات المواقعة يردّ إلى الرجل ويُحمل عليه وعلى رزقه ومتعته. فهو، الرجل الذكر، من يَقْطع مُتَّصل الشهوة (الأنثوية) ومُرْسلها، وهو من يعود إلى الإشتهاء من بعد أن تركه إلى غيره ويترك الغير هذا إلى الإشتهاء من جديد. وصنيعه هذا، أي إيقاعه المنفصل والمنقطع على المتصل وفيه، يشبه صنيعه في القرابة والأرحام، على ما مرَّ من قبل. فإذا كانت المرأة «أصلَ» المتصِل والمختلِط فالرجل هو عامل المنفصل والمرتَّب على مراتب القرب والبعد والفرق (لذا فلا دلالة إلا عَرَضية لمذهب من ذهب إلى أن الأنثى هي الأصل، فما ينبغي الإحتجاج له هو أن الأنثىٰ هي الأصلان، إذ «الأصل» اثنان وليس واحداً وإذ الكون شَطْح، وهذا أي الإحتجاج لازدواج الأصل ومثنويته عسير ومتناقض). فيجمع الخبر، أو الأخبار، أمرين متباينين: فتوجب الأخبار قياسَ الرجل على المرأة وشهوتها وكأن المرأة منفية من القياس، من وجه أول، وتُحمل المرأة على متعة الرجل وعلى عدد «مراته»، من وجه اخر، وكأنه لا قياس لها من نفسها.

فعلى الرجال مغالبة نازع النساء إلى رفع الفروق وإلغائها. فالكثرة النسائية لا تنتهي إلى حد أو عدد. وعلى خلاف زعم آيات الله الإيرانيين، في مطلع ثورتهم واحتجاجهم لتعدد الزوجات بأن الفرس تخلد إلى الحصان فتحمل منه وتنقطع شهوتها بينما الحصان مقيم على الإشتهاء في الأثناء ـ تزعم دنانير، مولاة البرامكة (الخبر الخامس عشر)، وتتابعها على زعمها عبيدة الطنبورية (الخبر السابع عشر)، وسبقتها إليه امرأة أبي ذؤيب (الخبر الرابع عشر) وماويّة بنت عَفْزَر (الخبر السادس عشر)، إن المرأة أحوج إلى رجلين من الرجل إلى امرأتين. ويصح هذا في النكاح وفي ما يمهد أو يقدّم له، على ما تدل المضارب والكيرنجات التي أهدتها نسوة بني أمية عمرَ بن أبي ربيعة (الخبر التاسع). لكنه يصح كذلك في القلب والهوى. فمجنون بني عامر، مجنون ليلى، يعزو جنونه إلى «تثنيته» العشق، فلم تقنع ليلى على زعم قيس بقلبه وحده وهواه وحده، فأصابت قلباً ثانياً أوقعت فيه الهوى. فالجنون، هو اختلاط، هو جواب «التثنية» هذه[٤٤].

وهذا من أمارات «محاورة» الأخبار الاثارَ والأحاديث والسيرة والتنزيل، قصد الإخباريون إلى مثل هذه المحاورة أو كانوا كتّاب الأصداء المترددة في ثنايا الحياة الاجتماعية ووجوهها المصبوغة بصباغ كثير الألوان تعلوه صبغة الإسلام. فالرجل يغتلم أحياناً، والرجال المصابون بالغُلمة معروفون بأسمائهم وفعالهم، أما النساء، في مرآة هذه الأخبار، فيُجبِن غُلمةَ الرجال من غير جهد ولا افتعال. فيبدون وكأنهن وقعن على أشباههن وأمثالهن، بينما يبدو الرجال استثناءً وشواذاً. بل إن الرجال المغتلمين، وإن زعم أعشى همدان أن سواد المسلمين يفعلون «هكذا» كلهم، هم من القوم الفاتحين والمنصورين. فهم جمعوا، على هذا، شكيمة المقاتل وعزيمة المؤمن إلى فحولة الذكر وشهوة المغتلم. وما اجتمع للرجل من هذا كله لم يجتمع للنساء لا مثله ولا قريب منه، من غير أن تقصِّر النساء عن الرجال.

فالرجل الفحل رجل موصوف ومُعْلَم (صاحب علامة وشارة) أما المرأة فتُجيب الفحولة وتستجيب دعواتها وهي على صفة الأنوثة وحدها وعلى نعتها الأول والنوعي (نسبة إلى النوع، على معناه في القياس المنطقي). وعلى حين يحتاج الرجال إلى نعوت ثانية، ومن تبوّؤ مراتب وتحدّر من أنساب وأصلاب أو انقطاع من النساء و«الأهل»، تقوم مقام العلة من فحولتهم ومن انفرادهم بها، تستوى «المَلِكة» ((ماوية بنت عفزر) والشريفة (عائشة) والمولاة المملوكة (دنانير) والمغنية من القيان (عبيدة) في استجابتهن الشهوات الذكرية من غير جهد. وهن ينسبن هذا إلى إنشاء عضوي وخَلق طبيعي، ويرددن الجواب على الإحتجاج «الطبيعي» (بالطبائع) بخلقهن لتكثيرهن زوجات حُرّات وإماءً وسرياتٍ، بملك يمين الرجل. فتحمل هندُ بنت الحارث المُرِّية عرضَ اشتهائها عُمَراً وسعةَ هذا الإشتهاء، الذي تقرنه بالدعاء في مواقف الحج والعمرة، على

---

(٤٤) ٢/٥٤.

(٤٥) في المجلد الثاني، والمجلد التاسع، والمجلد الثالث والعشرين، على التوالي.

عِظَم حِرِها (الخبر العاشر)؛ وتُدِلّ الحُمَيْسية المُرِّية على ابن ميادة «الخبيث» (الخبر الحادي عشر) بفَرْج يكذب زعم الشاعر أنه «كآثار الصغار من البَهْم». ويُبطل هذا، وغيرُه، تشبيه أبي ذؤيب ذكره بالسيف وفرج هند بالغمد (الخبر الرابع عشر)، وخلوصه من هذا وذاك إلى استحالة جمع السيفين في غمد واحد. فالتشبيه بالسيف مردود وباطل لأنه تشبيه غائي: يُصنع الغمد على قياس السيف، وقد سبق صنع السيف وصقله، ولأجل السيف. وليست هذه حال النساء يدعون الرجال ويحملن الذين يرغبن فيهم على الغياب «شهراً» لا يعلم «أهلهم» أين هم، على ما صنعت كَلْثَم بنت سعد المخزومية بعمر بن أبي ربيعة (الخبر الثاني عشر)؛ ولا هي حال اشتهائهن الرجل، ونفسهن جميعاً، إذ تبلغ بهن شدته (شدة الإشتهاء) الإغماءَ (سُبَيْعة بنت عبدالرحمن بن أبي بكرة في الخبر الثالث عشر) ـ أما الرجال فلا يغمى منهم إلا «مجانينهم» الموقوفون على امرأة واحدة: قيس ليلى، وقيس لُبنى، وعروة عفراء[٤٥].

بل إن رغبة النساء تنزع إلى تسوية الرجال وخلعهم من مراتبهم. والرغبة فيهن، إذا احتذت على مثالهن ومثال رغبتهن، حملت على محاكاة دينية وثنية قلّما يقع الواحد على شَبَه لها في الإسلام، حتى المديني والمرويّ (المكتوب)، وهي محاكاة قريبة من «سبت» الساحرات الأوروبيات في مرآة محاكم التفتيش الكاثوليكية ثم في بعض أفلام لويس بونويل الإسباني (**العصر الذهبي**، ١٩٣٠، و**فيريديانا**، ١٩٦٣). فيروي الأصبهاني أن يحيى بن زياد ومطيع بن أياس ووالبة بن الحباب وعمارة بن حمزة (الهاشمي) اجتمعوا ـ وهؤلاء رموا، وابن المقفع، بالزندقة وبعضهم «نزع» إلى عبدالله بن معاوية بن جعفر بن علي بن أبي طالب لما خرج في اخر دولة بين أمية بأصبهان وقمّ ونهاوند ـ وجميع أصحابهم، فشربوا أياماً تباعاً. فقال لهم يحيى، ليلة من الليالي، وهم سُكارى: «ويحكم! ما صلينا منذ ثلاثة أيام، فقوموا بنا حتى نصلي»، فقالوا: «نعم». فقام مطيع فأذّن وأقام، ثم قالوا: «من يتقدم؟»، فتدافعوا ذلك. فقال مطيع لمغنية: «تَقدمي فصلّي بنا». فتقدمت تصلّي بهم عليها غلالة رقيقة مطيَّبة بلا سراويل. فلما سجدت بان فرجها، فوثب مطيع فكشف عنه وقبّله، فقطعوا صلاتهم وضحكوا وعادوا إلى شربهم[٤٦]. فالفرج ليس «غمداً» بل هو وجه.

وليست القيان والرقيق مخصوصات بهذا. فليلى الأخيلية تهجو عبدالملك بن مروان وامرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وكان عبدالملك، الخليفة، عاب عليها مدحها توبة بن الحُمَيِّر، وتوبة رجلها و«الإعرابي الجلف» بحسب عاتكة، بالكرم وإفرادها إياه بهذه الصفة وتقديمه على «أمير المؤمنين»[٤٧]؛ فيتقدم «الأعرابي الجلف» «أميرَ المؤمنين» وترجح كفته في ميزان الأخيلية. وقد يؤدي انقلاب المراتب هذا إلى القتل أو إلى ستر المرأة اسم الرجل الوضيع الذي تهواه، فصحَّفت

---

(٤٦) ١٣/٣٢٦ ـ ٣٢٩.

(٤٧) ١١/٢٣١.

عُلَيَّة بنت المهدي (الخليفة العباسي الرابع) وأخت هارون الرشيد اسم خادم للرشيد هويته وقالت فيه الشعر، وكَنَتْ عن خادمها رشأ بزينب وشبّبت به[٤٨]. وعُلية بنت المهدي هذه هي التمثيل الإسلامي والعربي الصارخ على المرتبة وعلى التحجر عليها، وآية ذلك رواية جعفر بن يحيى بن خالد (البرمكي)، قتيل الرشيد في أخته علية من بعد، خبرَ تعرُّفه علية من طريق أخيها.

**ـ الخبر العشرون:**

أخذ هارون الرشيد بيدي ثم أقبل على حجرة يخترقها حتى انتهى إلى حجرة مغلقة ففتحت له، ثم رجع من كان معنا من الخدم، ثم صرنا إلى حجرة مغلقة ففتحها بيده. ودخلنا جميعاً وأغلقها من داخل بيده. ثم صرنا إلى رواق ففتحه، وفي صدره مجلس مغلق، فقعد على باب المجلس، فنقر هارون الباب بيده نَقَرات، فسمعنا حسّاً، ثم أعاد النقر فسمعنا صوت عود، ثم أعاد النقر ثالثة فغنت جارية ما ظننت والله إن الله خلق مثلها في حسن الغناء وجودة الضرب. فغنت فرقص (المهدي) ورقصنا. فلما خرجنا وصرنا إلى الدهليز قال الرشيد وهو قابض على يدي: «أعرفت هذه المرأة؟» فقلت: «لا يا أمير المؤمنين»، فقال: «إني أعلم أنك ستسأل عنها ولا تَكْتم ذلك، وأنا أخبرك أنها عُلَيَّة بنت المهدي، والله لئن لفظت به بين يدي أحدٍ وبلغني لأقتلنّك». فقال يحيى لإبنه جعفر: «فقد والله لفظتَ به، ووالله ليقتلنك! فأصنع ما أنت صانع»[٤٩].

فمهما كثرت الحجرات والأروقة والدهاليز والسُتُر التي تحجب بنت الخليفة وأخت الخليفة و«بنت عم» الرسول، على ما كان يقال في كل بني العباس عن «العامي» ولو كان وزيراً، ومهما رفعت الحُجُب هذه من مرتبة المرأة على مرتبة الرجل ـ والحجابة مرتبة ـ لم تقدر على تثبيت المرأة العاشقة على رتبتها وشرفها. وإذ يسع الخليفة أن يولد من أَمَة، قبل العباسيين وبعدهم، لا يسع بنت الخليفة، أو حتى من دونها بكثير، أن «يطأها» علج وابن علج ولو كان وزير تفويض برمكياً. وما يميزه الاجتماع، وتميزه السياسة، فيرفعان من «كمال» الرجل الناكح (الخبر السادس) ويجعلانه نظير «كماله» «في كل شيء» على قول مولاة عائشة بنت طلحة لعمر بن عبيدالله، ويحجبان المرأة الشريفة عن العامة والسوقة ـ تنقضه شهوة المرأة وتجعله مهاداً مستوياً. وعلى هذا فحيث لا يدخل الداخل إلا عن يد هارون، وليس عن يد مجهول أو غُفْل («ففَتحها بيده» على خلاف «ففُتحت له») من الخدم والحاشية، يلقى الداخلُ من يقوِّض كل المراتب ويهتك كل الستر. وإذ يُنهى الرجل عن التلفظ بإسم المرأة، على نحو نهي التوراة عن تسمية ذي العزة والجلالة بغير الأحرف الصامتة الأربعة (بالعبرية)، وكأن شيئاً منها ومن جسمها يقيم في اسمها «الإلهي» ويعلق به على نحو من الأنحاء[٥٠]، إذ يُنهى الرجل عن هذا، فينبهه أبوه إلى سعيه في

---

(٤٨) ١٠/١٧٤ ـ ١٧٥.

(٤٩) ١٠/١٨٨ ـ ١٨٩.

(٥٠) الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): **الكشاف عن حقائق التنزيل...**، (بيروت: دار المعرفة، بلات)، ج١، ص٣٥:=

قتل نفسه جرّاء روايته خبر نهيه عن التسمية والرواية[٥١]، تستجرّ المرأةُ الرجل إلى جسمها وترفع حجابَ الإسم وسترَ قدسه. فتعصف قوة الرغبة النسائية بالمراتب الإجتماعية والدلالات الرمزية جميعاً. فهارون، أخوة علية وعلى وجه ما أخو جعفر، هو من «يُدخل» جعفراً، أخاه بالمؤاخاة (على حسب السنّة المدينية التي نُسخت بتقدم معروف الأقربين على أخوة المؤمنين)[٥٢]، على أخته، حقيقةً ورحماً، علية، ويُسْلمه إلى شهوتها ورغبتها اللتين تقومان مقام «السبب» من شهوة جعفر ورغبته. فيقتل هارون جعفراً في شهوة يتشارك هو، هارون، وأخته علية في التسبب فيها. فكأن جعفراً هو الكناية المشتركة عن رغبة الأخ والأخت وأحدهما في الآخر، فيقتل الرشيد البرمكيَّ في الزنا بمَحْرم، هو محرمه هو، كان نهى عن الزنا به كنحو ما ينهى الأب الوالد البطولي والخرافي نواهيه (بالتهديد بـ «القتل» أو بالخِصاء). فما استحله الأخ وولي العهد، والأب الوالد حي يرزق ويرقص، نَقَضه الخليفة، «أمير المؤمنين»، حين «ولي» الأمر وصار «والداً» لرعيته، ومنها أخته و«أخوه»، وقتل جعفراً.

فكأن الرشيد يرد الجواب على منظورِ بن زَبَّان الفزاري إذ سأل ـ زوجَ مُلَيْكة بنت سنان المُرِّية، وهي زوجهُ من قبل وزوج أبيه من قبله: «كيف رأيتَ أثر (ذكري) في حِرِ مليكة؟» (الخبر الثامن عشر). فقطع الرشيد «أثر» جعفر في علية، وحمل سؤال منظور، وهو سؤال اليأس والإستحالة، على حرفه. فما يسأل عنه الفِزاري، وهو حملت به أمه «أربع سنين» (ومدة الحَمْل تنسب الخبر من هذا الوجه إلى زمن بطولي وخرافي)، إنما هو استحالة أن يقوم اشتهاءُ الرجال (النساءَ) بنفسه. فلا أثر، بديهةً، لذَكَر منظور ـ ولو كان ابنَ زَبَّان ومبالغاً في نسبه إلى أبيه وإسم أبيه وفي وراثته أرحام أبيه ـ في مليكة هذه. ولو كان ذَكَر الرجل يخلِّف أثراً في المرأة، وهو يريد أثراً غير ما يشتمل عليه رحم المرأة من نطفة الرجل، لقامت رغبة الرجل بنفسها ولما احتاجت إلى رغبة المرأة وإلى جسد المرأة. وما يمضّ الرجل، منظوراً وسواه، ويستطعم منه طعم المرارة، هو

---

=«لأن التسمية تنويه بالمسمى وإشادة بذكره» اشتق الإسم من السمو. وقبله النوبختي (ت ٢٥٠هـ) عن جعفر بن محمد: «من سمّاني بإسم فعليه لعنة الله»، **فرق الشيعة**، (بيروت: دار الأضواء، ١٩٨٤)، ص ١١٠..

(٥١) على نحو ما يقص خبر النضيرة بنت الضيزن (الخبر الأول) تقويض البنت الحائض والبكر حائط المدينة من طريق إفشاء طلسم يصنع من حيض بنت بكر. وهذا من قبيل تضمين الشبيه شبيهه ومن قبيل تثنية الخبر في مرآته وتضمين الخبرِ مرآته ـ يروي جعفر لأبيه يحيى الخبر الذي يكون السبب في قتله على ما أنذره هارون في الخبر الذي يرويه جعفر على سمع أبيه. وقد عَرَض مثل هذا في «ألف ليلة وليلة» (حكاية ابن الملك الذي أبعده أهله، وجعلوه في سرداب ليردوا عنه «نبؤة» قتله عن يد أقرب الناس إليه، فيروي السبب في إبعاده إلى حارسه في السرداب الذي يغلط فيقتل ابن الملك...). لكن التصريف المنطقي والإحتمالي، الغالبَ على الحكاية، يخلي المحل للرغبة النسائية الحقيقية.

(٥٢) نسخة الاية: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ اية المؤاخاة، ابن هشام (ت بين ٢١٣هـ و٢١٨هـ): **السيرة النبوية**، (مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٥)، ص ٥٠٥.

(٥٣) ٢٢٦/١.

انفصال اسمه ونسبه من رغبته. فإذا استقبلت المرأة في رحمها أثراً باقياً، مولوداً منه، استقبلت تغلبياً أو بكرياً أو استقبلت قيسياً، فيقتل القيسي التغلبيَّ، إذا قدر، ولو جنيناً في بطن أمه (الخبر التاسع عشر). أما رغبة منظور، وتحقيقُها يخيف الرشيد ويرهبه، ففي امرأة تحفظ منه ما لا يحفظه الإنسي من نفسه، وهو نفسه، أو ذات نفسه (الكرماني) - أي هذا الإضطراب الذي لا يُتعرَّف دوامه على ذاتٍ إلا من داخل غير مقسوم في غير. ومثل هذه الرغبة، وهي محالٌ، لا يبدو، في مرآة الأخبار، أن النساء يطلبنها أو يسعين فيها.

وآية ذلك مداعبة نسوة بني أمية عمر بن أبي ربيعة بدفعهن إليه «مضرباً» (الخبر التاسع)، هو مضربه، يتذكرهن به. فهن إذا أردن أن يحفظ عمر «أثرهن» فيه، والرجل «طَرِفٌ» تعريفاً فلا يحفظ أثر المرأة[٥٣]، لم يتوسلن إلى ذلك بشيء منهن، والأغلب على الظن أنه كان في وسعهن أن «يصورن» فروجهن ويُصنْعِن هذه الصور تماثيل، بل عمدن إلى مقايضة شعر عمر فيهن بمديح عمر على طريقتهن. فصورن صورته فيهن، أو حسهن به، وأهدينه إياها. فوسَّطن الرجل، عمراً وغيره، بينهن وبين أنفسهن. وذلك على ما صنعت هند بنت الحارث المُرّية (الخبر العاشر). فالمتمني الذي «منيته» هي ليس هي، على خلاف منظور بن زبّان: فهي تنادي من ترى نفسها في عينه وشهوته، فتشتهي نفسها من طريقه على نحو ما صنعت سُبيعة (الخبر الثالث عشر)؛ أما منظور فيسأل عن نفسه وعن «أثره» في مُليكة؛ وسؤاله ينم مطاولة رغبته في مليكة إياه ونفسَه ولكنه يميل عن الإقرار بذلك. وهذا مناط الفرق. فإذ تبالغ النساء في توسيط الرجال بينهن وبين أنفسهن، ولا يرَيْن حيفاً في الجهر بذلك، يطلب الرجال إلى النساء أن يحفظهن عليهم أنفسهم واثارهم وكأنهن مستودع ودائع الرجال ولا قوام لهن من أنفسهن.

ويحقق خبر الأعشى (أعشى قيس بن ثعلبة، الجاهلي) هذا الوجه الذي يتناول عليه الرجال النساء. فقد جاءت الأعشى امرأة فقالت له: «إن لي بناتٍ قد كسدن عليّ، فشبِّب بواحدة منهن لعلها أن تَنفُق». فشبب بواحدة منهن. فما شعر إلا بجَزور (لحم ماشية) قد بعث به إليه. فقال: «ما هذا؟»، فقالوا: «زوجت فلانة». «فما زال يشبب بواحدة فواحدة منهن حتى زُوجن جميعاً»[٥٤]. فما «يُنفق» المرأة هو رغبة الرجل، المشبب، فيها. فإذا وقع الرجل على رغبة رجل غيره في المرأة اشتهاها ورغب فيها. فتزوجها، إذا لم تكن محرماً، أو قَتَل مشتهيها، ومشتهاها، إذا كانت محرماً، أختاً، على ما صنع الرشيد؛ أو قتلها على ما صنع إخوة المرأة، من بني أبي بكر بن كلاب، هويت عبدالله بن مصعب (بن الزبير) وقالت فيه شعراً فقتلوها[٥٥]. وإذا أراد جرير، شاعر الدولة الأموية، إسكات شاعر يهاجيه، هو الراعي، قال له: «لأحملن إلى أعجاز

---

(٥٣) ٢٢٦/١.

(٥٤) ١١٥/٩، ومثله طلب مصعب بن الزبير إلى أم منظور جلوة عائشة بنت طلحة مثلما جلت بثينة لجميل، ١١٣/٨.

(٥٥) ٣٨٩/٢٣.

نسائك كلاماً يبقى ميسمه عليهن»، قال الأصبهاني: «فمات كمداً»[٥٦]. لم يشك الراعي، ولم يشك جرير، في ان «أعجاز النساء»، شأن فروجهن، تنقاد لوسم الرجال. فيخاطب الرجلُ الرجلَ من طريق النساء، ويقتتل الرجال ببقر بطون نساء بعضهم بعضاً (الخبر التاسع عشر). فهن الرباط والعروة؛ وهن السبب، على معاني السبب الكثيرة؛ وبهن يكنى عن المسكوت عنه وعن المستتر[٥٧]...

**ـ الخبر الواحد والعشرون:**

أغار الحارث بن تولب، من عقيل، وكان فيها «سيداً عظيماً»، وهو مخضرم، على بني أسد، فسبى امرأة منهم اسمها حمزة، فوهبها لأخيه، النمر، الشاعر. فكرهته، فحبسها حتى استقرت وولدت له أولاداً. ثم قالت له في بعض أيامها: «أزِرني أهلي»، وواثقته لترجعن إليه. فخرج بها حتى أقدمها بلاد بني أسد. فلما أطلَّ على الحي تركته واقفاً، وانصرفت إلى منزل بعلها الأول. فمكثت طويلاً فلم ترجع إليه. فعرف ما صنعت وأنها اختدعته. فانصرف[٥٨].

**ـ الخبر الثاني والعشرون:**

عن محمد بن كناسة، من خزيمة ومن شعراء الدولة العباسية و«حُمل عنه شيء من الحديث»، قال: «كنت في طريق الكوفة، فإذا أنا بجويرية (جارية أو بنت فتيّة) تلعب بالكعاب، كأنها قضيب بان. فقلت لها: أنتِ أيضاً لو ضِعْت لقالوا ضاعت جارية، ولو قالوا ضاعت ظبية كانوا أصدق. فقالت: ويلي عليك يا شيخ! وأنت أيضاً تتكلم بهذا الكلام؟ فكُسفت والله إلى بالي، ثم تراجعت وقلت:

وإني لحلو مخبري إن خبرتني ولكن يغطِّيني ولا ريب بي شيخ [شيخوخة]

فقالت لي وهي تلعب وتبسَّمت: فما أصنع بك أنا إذاً؟ فقلت: لا شيء. وانصرفت»[٥٩].

**ـ التعليق على الخبرين**

تُخرج «الجويرية» الشيخ من خطابته أو بلاغته، ومن زعمه الصدق وهو يستعير تارة «غصن بان» وتارة «ظبية»، بحملها كلامه على حال الشيخ («وأنت أيضاً»)، وبإيقاعها كلامه وكلامها على لعبها وعلى حالها، أي على فرق الحالين والرغبتين. فينصرف الشيخ، شأن النمر بن تولب

---

(٥٦) ٣٥٣/٢٣.

(٥٧) كان وضاح اليمن والمقنَّع الكندي وأبو زبيد الطائي «يردون مقنعين حذراً على أنفسهم من النساء لجمالهم»، ١٩٨/٦. وكان يزيد بن الطثرية عيناً وافتتنت النساء به، ١٥٨/٨.

(٥٨) ٢٩٠/٢٢ - ٢٩١.

(٥٩) ٣٣٩/١٣.

في الخبر الذي قبله، إذ تولّي المرأة وجهَها شطرَ «منزلها» ـ ملعباً أو حياً. ويصدَع الرجلان، ابن تولب وابن كناسة، لسؤال المرأتين، المضمر والمعلن: ما أصنع بك أنا؟ وهما يصدعان لما يكني عنه السؤال. والسؤال، غير الإستفهامي، يكني عن أن تولية المرأة ظهرَها الرجلَ (نظير ظُهار الرجل وإيلائه في الشرع؟) ليست سلباً، ولا تقتصر على السلب، بل هي (التولية) توجب رغبة، وتصدر عن رغبة وعن إيجاب. وإذا كانت حمزة، الأسدية، توقع رغبتها على بعلها الأول وحبِّها الأول (بخلاف النضيرة بنت الضيزن وبنت أخت قيس بن عاصم وهند امرأة حُجر بن عمر آكل المُرار)، وتستأنف حياةً حَسب زوجُها الثاني أن أولادها منه، في حبسها واستقرارها، قطعوها منها، فـ«الجويرية» تثبت، من طريق اللعب ورد الإستعارات والتبسّم، مكاناً وجسداً لا متعلَّق لهما بغير «الجويرية» نفسها. وقد لا يكون جُزافاً ولا عبثاً أن البنت جارية (تجري)، وان ابن كناسة لقيها «على طريق الكوفة» ولم يلقها بحي أو أهل. فالتعلق بالنفس، وإيجاب الرغبة، إنما مبناهما على «طريق». «فليس بهاء الحياة بمنأى منا، وهو لا يكنّ عداوة، ولا يضمر سوءاً، وليس بالأصم. فإذا نودي عليه بالحرف المؤاتي، وبإسمه هو، لبّى النداء (...) فلا ريب أننا طردنا من الفردوس وأخرجنا منه، لكن الفردوس لم يهدم من بعد».